قالت العرب

ما أوْسَعَ الخَيرَ فابْسُطْ راحَتَيكَ به، وكُنْ كأنّكَ، عِندَ الشّرّ، مَغلُولُ / الحَمْدُ للّه في آجالنا قِصَرٌ، نبغي البقاءَ وفي آمالنَا طُولُ / نعوذُ بالله من خذلانه أبداً فإنّمَا النّاسُ معصومٌ ومخذولُ / إنّي لَفي مَنزِلٍ ما زِلْتُ أعْمُرُهُ، على يقينيَ بأني عنهُ منقُولُ.

الشهد

العدد 358 – السنة الرابعة عشرة -السبت 15 أغسطس 2026م - 2 ربيع الأول 1448 هـ

الخلاص الروحى غاية الروسى بيتر ديميانوفيتش أوزبينسكى فى «أحاديث مع شيطان»

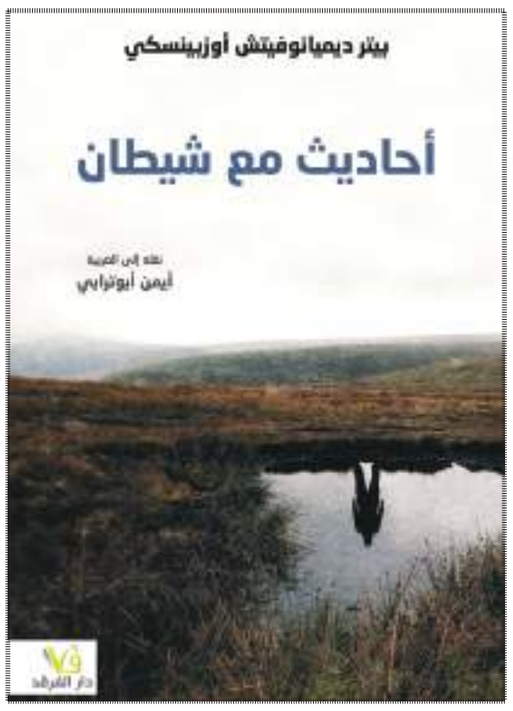

تعد رواية «أحاديث مع الشيطان» للكاتب الروسى بيتر ديميانوفيتش أوزبينسكى (دار الفرقد – دمشق) هى خلاصة فكره الفلسفى بطابعه الصوفى الذى نقله عن الفيلسوف الصوفى والمعلم الروحى الأرمينى جورج غوردجييف، وهذه الرواية هى أول تعارف يحدث بين بيتر أوزبيننسكى والقارئ العربى عبر ترجمته العربية الأولى له من قبل أيمن أبوترابي. ولد أوزبينسكى فى مدينة «خاركيف الأوكرانية» عام ١٨٧٨م، وفى عام ١٨٩٠م درس فى صالة موسكو الثانية للألعاب الرياضية الحكومية، وعمل عام ١٩٠٦م فى مكتب تحرير صحيفة موسكو اليومية The Morning. وعام ١٩٠٧م أصبح مهتمًا بالثيوصوفيا، Theosophia والتى تعنى تعنى الحكمة الإلهية، وهو مفهوم دينى فلسفى يرى أن الأديان كلها واحدة فى جوهرها وإن اختلفت أشكالها وصورها، وتهتم هذه الفلسفة بالجانب الروحى عند الإنسان، تنصهر داخلها المؤثرات الأفلاطونية، والبوذية، والهندوسية، والغنوصية مشكلة من هذا المزج فلسفتها الخاصة.

وفى عام ١٩١٣ بعمر ٣٥ عاما سافر أوبيننسكى الشرق بحثًا عن المعجزات الشرقية والمعرفة حيث زار مصر والهند وسيلان المعروفة بسريلانكا – وتظهر آثار هذه الرحلات وهذه البلاد داخل روايته تلك – ، لكنه اضطر للعودة إلى موسكو بعد بداية الحرب العالمية الأولى وهناك التقى بغوردجييف وتعلم على يديه لعشرة أعوام مبادئ ثيوصوفيا ثم انفصل عنه وتوفى عام ١٩٤٧م.

المخترع

تحتوى رواية «أحاديث مع شيطان» على حكايتين الأولى بعنوان «المخترع» والثانية «الشيطان الخير» يدور فى أحداثهما تواصل بين شيطان وبشرى وعبر الحديث يسعى الشيطان أن يرسم صورة مغايرة عن نفسه يدافع فيها عن أفعاله. فى الحكاية الأولى «المخترع"» تجرى الأحداث عن «هيو» الشاب الأمريكى المخترع صاحب عقلية خلاقة أجبرته ظروف وفاة والديه هو فى السادسة عشر من عمره على العمل فى مكتب رسم داخل مصنع وترك المدرسة وأسهم باختراعاته فى رفع مستوى المصنع وعندما يتزوج تسوء حياته على المستوى الإبداعى والطموحات التى يريد تحقيقها من ناحية، وفى عمله من ناحية ثانية، وحياته الأسرية من جانب ثالث، حيث تقرر زوجته «مادج أونيل» الانفصال عنه ووسط تلك الخيبات يقرر الانتحار، وبينما هو يضع فوهة المسدس على رأسه تأتيه فكرة اختراع جديد سيقلب العالم رأسًا على عقب فيتراجع عن الانتحار ويكتب إلى زوجته أن تمنحه فرصة عام وإن فشل اختراعه الجديد سيعمل معها فى مجال زراعة الورود، وبالفعل يخترع هيو مسدسا آليا يدر عليه أرباحا هائلة ويصبح مطلوبًا من العالم كله وتفوق مبيعات سلاحه مبيعات الكتاب المقدس، ويتسبب فى مجازر وحروب شتى فى جميع بلدان العالم التى تتصارع على امتلاك هذا السلاح الخطير.

الشيطان الخير

وفى القصة الثانية «الشيطان الخيّر» يتناول العلاقة بين العالم المادى والعالم الرّوحى عبر حوار يدور بين السارد والشيطان عن قصة الضابط الإنجليزى «ليزى وايت» الذى يعمل فى الهند، ويحاول انتزاع نفسه من العالم المادى إلى التصوف إلا أن الشيطان يقف حائلا، فالشيطان عمله هو أن يبقى الإنسان على الأرض عبر ما هو مادى فوجوده مرتبط بهذه العملية وإلا لن تصبح له سلطة على البشر ، لذا يقوم الشيطان بكل قوة بمحاولات لمنع ليزى وايت المثقف الذكى الذى قرر الخوض فى التعاليم الروحية البوذية من أجل الخلاص من المادة والوصول إلى الجوهر إلا أنه يفشل فى طريقه، ويقنعه الشيطان عبر شهوة الطعام والشراب، كما أغوى آدم وحواء من قبل، عن التخلى عن أفكاره نهائيًا ويتحول إلى ضابط فى لواء الفرسان الأسكتلندي.

ويقسم الشيطان البشر فى هذه القصة إلى نوعين أبناء الحيوانات، وأبناء أدام، فأبناء أدام وحدهم القادرون إلى الوصول إلى الحقيقة المطلقة والتخلى عن المادة لذا يركز على منعهم من التواصل مع بعضهم وكبح قدراتهم نحو التحرر. أما أحفاد الحيوانات لا يسببون أى صعوبة للشياطين؛ لأنهم راضون عن الشكل والمظاهر ولا يسمحون للدين أبدًا على الرغم من كونهم متدينين بالتدخل فى حياتهم.

ويظهر فى الرواية تأثر كاتبها فى عملية السرد بالأسلوب الشعبى فى حكاياته الشعبية مثل ألف ليلة وليلة ، ويتجلى ذلك أولًا من ناحية الموضوع الذى تتطرق له الرواية بالحديث عن الشياطين التى اهتمت بها الحكايات الشعبية العربية، وكذلك الديانات الشرقية فى أساطيرها، وثانيًا فى عملية السرد التى جاءت أقرب إلى الحكايات حيث يغلب فيها السرد على الوصف والانتقال السريع من حدث إلى آخر. أما الجانب الثالث فى الأوصاف التى أطلقها على الشيطان شكله وتحركاته وأفعاله فهى تشبه ما جاء فى ألف ليلة وليلة ومن ذلك وصفه لطريقة اختفاء الشيطان أو ظهوره مثل:

«اندفع الشيطان على هيئة شعلة خضراء غاضبة، وخبط بقبضته على الطاولة بضربة مدمرة وزمجرة ... ثم اختفى تحت الأرض تاركًا خلفه رائحة الكبريت فقط» ص٨٧.

وتتكرر مثل تلك الأوصاف مثل أن له ذيل، قبح منظره ...إلخ وكلها من تأثيرات الديانات والحكايات الشرقية.

أما على مستوى الفكر الشرقى فهو المسيطر على أجواء النص الروائى من بدايته إلى نهايته، فهى تقارن بين العقلية الشرقية الروحية والعقلية الغربية المادية وتنتصر للروح على حساب المادة، خاصة فى القصة الثانية التى يتناول فيها بوضوح مسألة الدين والأفكار الشرقية المتعلقة بالثيوصوفيا التى تؤمن بوحدة الكون ووحدة الأديان وأن الأديان وإن اختلف شكلها فإن جوهرها واحد وهو ما يلخصه الصوفى العربى الكبير محى الدين بن عربى فى قوله «لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبى إذا لم يكن دينى إلى دينه داني/ وقد صار قلبى قابلا كل ملة فمرعى لغزلان ودير لرهبان/ ومعبد أوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن/ أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب دينى وإيماني».

ويتشابه أسلوب الرواية وطابعها الصوفى مع حياة مؤلفها الذى كان يدعو الله ألا يصبح مشهورًا خلال حياته، تظهر فيها فكرة الشيخ والمريد وأن على المريد أن يتحمل الصعوبات التى يضعها الشيخ أمامه حتى يصل الجوهر. ويظهر فى هذه الرواية التأثر الواضح للمؤلف بفلسفة غوردجييف الروحية التى ترى أن هناك أربع طرق للتصوف وليس ثلاثة فقط كما هو شائع فى الثيوصوفية الباطنية. الطريق الأول يطلق عليه طريقة الدراويش أو الناسك الهندى "the Way of the Fakir" ويتعامل حصريًا مع الجسد والزهد فى المادة. والطريق الثانى هو طريق الرهبان ويتعامل مع العواطف والمشاعر القلبية وتهذيبها. والثالث اليوجا أو ممارس تمرينات اليوجا ويرتبط بالعقل. وهذه الطرق الثلاثة تطالب المنتمى إليها بالعزلة الكاملة عن العالم. أما الطريق الرابع فى التصوف الذى اعتمده غوردجييف وبنيت على رواية «أحاديث من الشيطان» وآمن به أوزبيننسكى حتى فى حياته الشخصية فهو لا يشترط أن يعتزل المتصوف العالم ويمكنه أن يصل إلى جوهر العالم حتى هو منخرط فيه يتعلم من خلاله الشخص التوفيق بشكل منسجم مع جسده المادى وروحه وعقله وهو ما يقول به الحكيم الهندى داخل حكاية «الشيطان الخير» للضابط الإنجليزى ليزلى وايت بأنه ليس مضطرًا للعزلة بل يمكنه العمل فى السياسة ويكون صوفيًا، إلا أن «وايت» يفشل فى تحقيق ذلك نتيجة للعراقيل التى يضعها الشيطان أمامه. ويقول الرجل الهندى داخل الرواية لوايت عن هذا الطريق:

«أنت تقول إنك مستعد لترك كل شيء، غير أن هذا ليس ضروريًا على الإطلاق بل على العكس من ذلك، لأن الأهم أن ينابع المرء حياته مثلما كان من قبل ويخضع هذه الحياة لمسعاه الأسمى. انظر إلي. أنت تعرفنى أنا أشغل نفسى بالسياسة والأعمال وأعيش كرجل بفضل الحياة العائلية على سواها لم أتخل عن أى شيء. غالبا ما يكون الاعتزال فى البرارى أسهل الطرق ولكن لا يجب أن تفعل دائما ما هو سهل، بعض الأحيان يكون من الضرورى اجتياز الطريق الصعب» ص١٣٧.

ومن الجدير بالذكر هنا أن تلك الفكرة تحيل إلى ما قام به الحلاج فى مسرحية صلاح عبدالصبور «مأساة الحلاج» حين آثر خلع الخرقة الصوفية والسير بين الناس ناصحًا على عكس إرادة الشبلي.

ومن الأشياء التى تناقشها الرواية فكرة فضل الحروب وعدم الاستقرار فى تقدم الشعوب والحضارات، فأغلب الاختراعات التى قام بها البشر مثل الإنترنت وشبكات الطرق والسفر إلى الفضاء بسبب الحروب، أما السلم فيتسبب فى ضعف الشعوب ثم سقوطها من التاريخ حيث يقول الشيطان لمحاوره داخل الرواية:

«أحلام السلام هذه جعلت حتى أكثر الأمم تحضرًا فى حالة وهن... لا ينغمس فى أحلام السلام الدائم سوى المتعبين والمستنزفين والمحرومين روحيًا. الحرب هى المبدأ الخلاق فى العالم وبدون الحرب تبدأ التطورات غير الصحية فى الظهور: الصوفية، والأدب الفاضح، وانحطاط فى الفن، والتراجع العام للصحة والقوة. إن فترات السلام الطويلة تؤدى دائمًا إلى الانحطاط» ص٧٧.

وهو ما يطلق عليه البعض نظرية «التدافع» فى تفسيرهم للآية الكريمة ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾ (البقرة: آية ٢٥١).

وترصد الرواية أيضًا قضية متكررة فى التاريخ، ألا وهى أن أغلب المبتكرين فى العالم لا يجنون أرباحا ولا يستفيدون من اختراعاتهم ضاربًا المثل برسام فرنسى أطلق النار على نفسه بسبب الفقر والفشل، وبعد وفاته بخمس سنوات بيعت لوحاته بملايين الفرنكات، وأن هناك اختراعات قدمها أصحابها فى الوقت غير المناسب، فالمحركات البخارية اكتشفت فى العصر الرومانى والكهرباء فى العصور الوسطى إلا أنه لم يلتفت إليها أحد فى وقتها ونسيت. عامدًا بذلك إلى طرح الكثير من القضايا الإشكالية وتقديم تفسيرات منطقية لها.

جورج غوردجييف

د – عبدالكريم الحجراوي

عطفة المحبة (3): الشيخ عبدالله الرزيقي.. حين يغيب البصر ولا تغيب البصيرة

حين شرعتُ فى كتابة الحلقة الجديدة من حكايات «عطفة المحبة»، كنتُ أعدّ نفسى للكتابة عن ابنة أم سلامة عطيات، تلك التى كانت تقاسمها الشقة نفسها. جلستُ أستدعى تفاصيلها من طيات الأيام، وأسترجع ما بقى فى الذاكرة من حكاياتها، وبدأت أكتب.

ثم توقفت.

فى تلك الليلة، جاءنى الشيخ عبدالله الرزيقى في المنام.

لم يأت غاضبًا ولا مخاصمًا، بل كان عتابه هادئًا، كصاحب حق قديم لا يحتاج إلى ضجيج ليسترده. وكأنه استوقفنى عند باب العطفة وقال بصوته الدافئ:

«كيف تبدأين الحكايات ولا تبدأين بي؟»

استيقظتُ وأنا أبتسم، وشعرتُ أنه محق.

فبعض الناس لا يمرون بالمكان كعابرى سبيل، بل يصبحون جزءًا من روحه ، وإذا كانت «عطفة المحبة» قد احتفظت فى خاطرى بوجوه كثيرة، فإن الشيخ عبدالله كان من أكثرها حضورًا؛ لم يكن يسكن العطفة فحسب، بل كان صوته يدخل بيوتها، ويجمع أهلها على شيء أعمق وأجمل من تفاصيل الحياة اليومية كان يجمعها على كتاب الله.

أغلقتُ مؤقتًا دفتر ابنة أم سلامة، وفتحتُ دفتر الشيخ عبدالله وعزمت على عدم الالتزام بترتيب الشقق والبيوت عند الحديث عنهم، المهم انهم يتشاركون جميعا فى الحكاية حتى وإن كان بعضهم لا يسكن العطفة ولكنه يشبههم فى أشياء كثيرة.

كان الشيخ عبدالله يسكن إحدى شقق العطفة وكان رجلًا يفرض حضوره من غير تكلف، مهيب الطلعة، قوى البنيان، وفى وجهه وقار يليق برجل دين قضى عمره فى معية القرآن. ومع ذلك لم تكن هيبته تُبعد الناس عنه، بل كان قريبًا من القلوب، وكانت محبة أهل العطفة له تسبقه أينما حلّ.

فقد الشيخ بصره وهو طفل، لكن غياب الضوء عن عينيه لم يظلم دنياه ، حفظ القرآن الكريم فى كُتّاب قريته بمحافظة الغربية، ثم ارتحل إلى القاهرة ليدرس العلوم الشرعية فى الأزهر الشريف، وبعد أن أتم دراسته، كان بمقدوره العودة إلى جذوره الدافئة فى القرية، لكنه اختار القاهرة لتكون مستقره ومقامه.

تزوج إحدى قريباته، وأنجب ولدًا وبنتين ، تزوجت الابنتان فى القرية، أما ابنه محمود فتزوج إحدى بنات بلدتهما، واختار أن يعيش مع أبيه فى الشقة نفسها.

كان محمود ضابطًا فى الجيش، بينما كان والده إمامًا لمسجد «السايس» القريب من العطفة فى شارع سوق السلاح.

ومسجد «السايس» ليس مجرد مسجد عابر فى ذاكرة المكان، بل هو جامع الأمير ألجاى اليوسفي، الذى يعود تاريخ إنشائه إلى سنة ٧٧٤ هجرية، فى عهد السلطان الأشرف شعبان، مسجد مملوكى عريق تنطق حجارته بالتاريخ؛ بأبوابه العظيمة، وساحته الواسعة، وقبته ومئذنته وسبيله، وكل تفصيلة فيه تحمل شيئًا من القاهرة القديمة.

وللمسجد حكاية أخرى حفظتها الذاكرة الشعبية، وأوردها على باشا مبارك فى «الخطط التوفيقية». فقد شاع فى عصر محمد على باشا اعتقاد بأن أحد أعمدة المسجد يحمل سرًا للشفاء. كان الناس يتوافدون عليه، ويسكبون الماء الممزوج بعصارة الليمون على العمود، ثم يلعقونه طلبًا للشفاء.

وظل الاعتقاد يتردد بين الناس حتى وقعت حادثة سرقة لإحدى النساء أثناء زيارتها للعمود، فبُنى حائط يحجبه عن المترددين، ومع مرور الزمن تراجع ذلك الاعتقاد، وبقى نصف العمود ظاهرًا كأثر من زمن بعيد، حين كانت الحكايات الشعبية تختلط بالمقدس وتصنع لنفسها طقوسًا خاصة.

لكن بالنسبة إلى أهل العطفة، لم تكن الحكاية الأهم فى المسجد هى حكاية العمود. كانت الحكاية فى الرجل الذى وقف فى محرابه.

الشيخ عبدالله.

الرجل الذى فقد بصره صغيرًا، ثم وقف يقود الناس فى صلاتهم. كان يعرف طريقه إلى المسجد دون أن يحتاج إلى من يقوده، ويحفظ القرآن من مصحف أودعه الله فى قلبه وذاكرته.

ولم يكن القرآن عنده مجرد عبادة يؤديها، بل كان حياة كاملة تمتد من المسجد إلى البيت.

ففى كل خميس، كانت شقته تتحول إلى مقرأة.

كان اليوم يبدأ مختلفًا ، بتحضيرات الضيافة من أهل البيت ثم يتوافد تلاميذ الشيخ من المسجد، وأبناء العطفة والجيران بعد صلاة العشاء ، ويجلسون فى صحبته، ثم تبدأ التلاوة.

كان يصحح القراءة، ويضبط الحركات، ويرد القارئ إلى الصواب إذا أخطأ ، وكان فى طريقته ما يجعل القرآن قريبًا من الناس؛ فالخطأ لم يكن عيبًا، وإنما فرصة ليتعلم صاحبه كيف يقرأ كلام الله على الوجه الصحيح.

وكان للقرآن فى ذلك البيت فرحتان؛ فرحة فى منتصف القراءة، وفرحة أكبر عند الختم. تُعد الحلوى، ويُجهز الأرز باللبن، وتدور المشروبات بين الحاضرين، فيتحول ختم القرآن إلى يوم من أيام الفرح التى تحفظها الذاكرة.

ولم ترحل هذه العادة برحيل الشيخ، بل حافظ عليها ابنه محمود، وكان حافظا للقرآن الكريم مثل والده وكان من يقوم بالتصحيح مع كبار رجال الدين بالمقرأة واستمر من بعده ابنه سليم على نهج جده ووالده.

وإذا دخلنا الغرف المغلقة فى المنزل تختلف الصورة ؛ لأن البيوت لا تكون دائمًا على صورة واحدة، ولا يمكن اختزال أهلها فى صفة واحدة.

كان محمود رجلًا جادًا وحازمًا فى كل أمور حياته. وربما أسهمت حياته العسكرية التى يعيشها فى عمله فى ترسيخ هذه الصرامة؛ فقد اعتاد النظام والانضباط والالتزام، فكان يتعامل مع تفاصيل الحياة بمنطق واضح: ما ينبغى أن يحدث يجب أن يحدث، وما لا ينبغى فعله لا مجال فيه للتساهل.

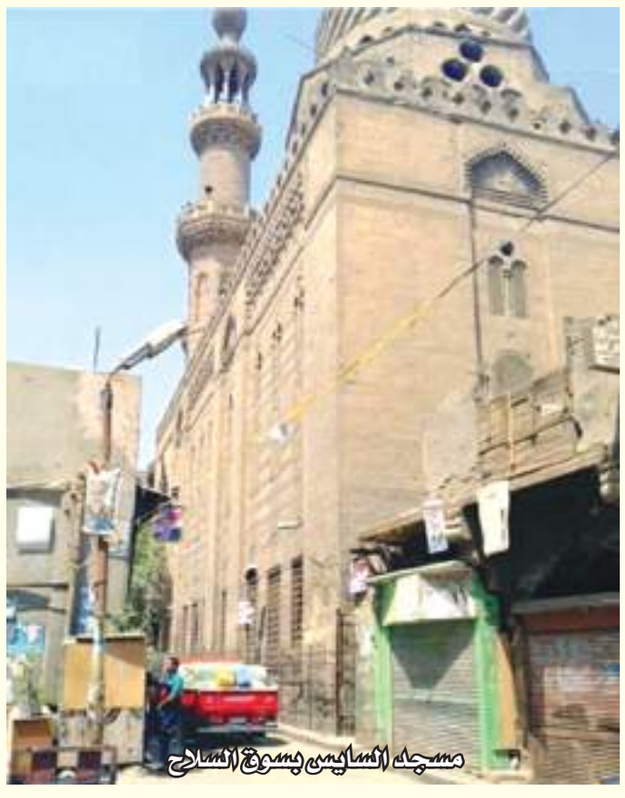

مسجد السايس بسوق السلاح

لكن محمود لم يكن رجلًا قاسيًا فى المطلق، ولم يكن فظًا كما قد توحى به صرامته فى التعامل بعض بل كان رجلًا محترمًا، متزنًا، يقدم الخير لجيرانه ويارا بأهل قريته و يعرفه الناس بذلك، وكانت له مكانته وهيبته بين من حوله.

غير أن الإنسان قد يكون شيئًا فى أعين الناس، وشيئًا آخر تمامًا فى عيون أقرب الناس إليه.

وهكذا كانت زوجته وابنتاه ترى صرامته من داخل البيت؛ حيث لا يبدو الحزم دائمًا فضيلة، وحيث يمكن للكلمة الجادة أن تثقل قلبًا صغيرًا، حتى لو لم يقصد صاحبها أن يؤذي.

بعد وفاة زوجة الشيخ، ظل عبد الله يعيش مع ابنه محمود وزوجته وأبنائه.

وكان الأحفاد يتناوبون اصطحاب جدهم إلى المسجد؛ البنات فى صلاتى الظهر والعصر، والفتيان فى المغرب والعشاء والفجر.

كان المشهد من الخارج يحمل قدرًا كبيرًا من الدفء: حفيد يمسك بيد جده الكفيف، يمشى معه من البيت إلى المسجد، ثم يعيده بعد الصلاة.

لكن الطريق نفسه كان يخفى حكاية صغيرة لا يعرفها الجد.

كانت إحدى بنات محمود تتألم من صرامة أبيها، ولا تعرف كيف تعبّر عن غضبها أو اعتراضها حكت لى ونحن صغار أنها وحين يأتى دورها فى اصطحاب جدها إلى المسجد، كانت تجد فى الطريق فرصة صغيرة لتفريغ ما بداخلها.

لم تكن العطفة نفسها مكانًا واسعًا أو متشعبًا؛ كانت شارعًا صغيرًا مغلقًا، لكن الطريق من البيت إلى المسجد كان يخرج إلى شوارع الحى المحيطة بها. وهناك، فى ذلك الطريق القصير، كانت الطفلة تتوه بجدها قليلا.

تبتعد به عن المسار، ثم تعود به إلى الطريق المؤدى إلى المسجد.

ربما لم تكن تفكر يومها فى الأمر بكل هذا التعقيد. كانت طفلة تحمل غضبًا أكبر من قدرتها على التعبير عنه، فوجدت فى ذلك الطريق القصير وسيلة طفولية للتمرد.

لكن ما يوجع فى المشهد الآن أن الرجل الذى كانت تمسك بيده لم يكن يعرف شيئًا عن ذلك ، كان يثق بيد حفيدته.

والرجل الذى أمضى عمره فى تعليم الناس الصواب، كان يسير فى ذلك الطريق مستسلمًا ليد صغيرة، لا يعرف أنها تحمل فى داخلها غضبًا لا علاقة له به.

ولم تكن تلك الطريقة الوحيدة التى حاولت بها البنات الهروب من صرامة أبيهن.

كنّ يخرجن صباحًا في بعض الايام بحجة الذهاب إلى المدرسة، ثم يذهبن للتنزه بعيدًا عن أعين الأب الذى كان يحرص على النظام والانضباط ، ومع الوقت تأثرت دراستهن، وصارت الأم وهى سيدة طيبة وبشوشة محبوبة من جيرانها ولكنها ربما كانت مع زوجها ضعيفة أو مستسلمة لا تستطيع مواجهته فتخفى بعض التفاصيل خشية أن تتسع دائرة الخلاف داخل البيت، ولكن كان لهذا الفعل اثار فى اتساع الفجوة بين الأب وأسرته.

وبالنسبة للبنات حين ضاقت المساحة أمامهن، مع عدم قدرتهن على فهم المخزى من صرامة الأب.. بدا الزواج كأنه باب للخروج.

فأقبلن على أول خاطب يطرق الباب، لا بالضرورة لأنهن وجدن فيه الرجل الذى يحلمن به، وإنما لأن فكرة الرحيل من البيت كانت فى حد ذاتها تبدو كأنها نجاة.

لكن الحياة لا تضمن أن يكون الباب الذى نهرب منه أقل قسوة من الباب الذى ندخله.

انفصلت إحدى البنات عن زوجها بعد أن أنجبت طفلين وعادت بهما إلى بيت أبيها فى عطفة المحبة.

وهكذا دارت الحياة دورة كاملة؛ البيت الذى كان يومًا مصدرًا للرغبة فى الرحيل، صار بعد سنوات الملاذ الذى تعود إليه ابنته حين تضيق بها الدنيا.

وربما هذه هى الحكاية الحقيقية التى تخبئها البيوت القديمة: أنها لا تحمل خيرًا خالصًا ولا شرًا خالصًا، وإنما تحمل بشرًا يخطئون ويصيبون، يحبون ويقسون، يحنّون أحيانًا ويعجزون أحيانًا أخرى عن التعبير عن محبتهم بالطريقة التى يحتاجها من يعيشون معهم.

وفى بيت الشيخ عبدالله، كان هناك هذا التناقض الجميل والمؤلم فى آن واحد؛ قرآن يتلى، ومقرأة تجمع الناس، وحلوى وأرز باللبن فى أيام الختم، وفى الجانب الآخر أب شديد الانضباط، وأم تحاول أن توازن البيت، وبنات يبحثن عن مساحة صغيرة لأنفسهن.

ولعل محمود نفسه لم يكن يرى فى صرامته ما كانت زوجته وابنتاه ترينه.

فهو لم يكن يظن أنه يؤذيهن؛ كان على الأرجح يظن أنه يحميهن بالطريقة التى يعرفها، وأن الحزم هو الطريق الصحيح لتربية الأبناء. لكن النوايا الطيبة لا تمنع دائمًا أن تصل المشاعر إلى الآخرين بصورة مختلفة.

وهذه واحدة من أكثر الحقائق الإنسانية التباسًا: قد يحبنا أحدهم بطريقته، بينما نحتاج نحن إلى أن يحبنا بطريقة أخرى.

أما الشيخ عبدالله، فظل فى قلب كل ذلك كأنه نقطة هدوء.

عاش عمره مع القرآن، وجعل من بيته مكانًا يجتمع فيه الناس، ومن صوته فى المسجد شيئًا مألوفًا فى ذاكرة أهل العطفة.

حين أفكر فيه الآن، لا أتذكره فقط إمامًا مهيبًا فى محراب مسجد السايس، ولا شيخًا يجلس بين الناس يصحح تلاوتهم.

أتذكر يده وهى تبحث عن يد حفيده.

أتذكر صباحات الطريق إلى المسجد.

أتذكر بيتًا يستقبل المقرأة كل خميس، وأصوات التلاوة وهى تتعالى بين جدرانه، ثم رائحة الحلوى والأرز باللبن فى يوم الختم.

وأتذكر رجلًا فقد بصره صغيرًا، لكنه لم يفقد القدرة على أن يدل الآخرين على الطريق ، وربما لهذا جاءنى فى المنام.

لم يكن عتابه أن أكتب عنه أولًا فحسب، وإنما كان تذكيرًا بأن الذاكرة لا تسير دائمًا وفق الترتيب الذى نضعه لها، وهناك أبواب لا يجوز أن نمر بها دون أن نطرقها.

أما باب الشيخ عبدالله الرزيقي، فقد جاءنى صاحبه بنفسه، وطرق الباب أولًا .. ففتحته.

❖ رابط حلقات عطفة المحبة على الموقع الإلكتروني

B%https://www.elmashhad.online/search/ss=%D8 A9%D8%81%D9%B7%D8%9

بقلم: سحر البيلاوي